الصباح الإسلامية
09
العدد 1921 - السنة السابعة
الخميس 26 رمضان 1435 - الموافق 24 يوليو 2014
Thursday 24 July 2014 - No.1921 - 7th Year

العلماء أكدوا أن إعجازه يكمن في قدرته على التغيير

القرآن سر نهضة الأمة.. هجره من يحفظون كلماته ولا يطبقون أحكامه

■ الهلالي: الأمة تخسر كثيراً بالتعامل الشكلي مع القرآن وترك المعاني والتطبيق

■ بن باز أكد أن النافع في تعلم القرآن هو مدارسة اللفظ والمعنى معاً وهذا هو فعل النبي صلى الله عليه وسلم

■ الغزالي دعا الأمة إلى العودة الصادقة لكتاب الله فلا تظهر شيئاً وتبطن سواه

حال المسلمين مع القرآن الكريم تستدعي الدراسة المتعمقة، ذلك أن المسلمين بعد القرون الاولى انصرف اهتمامهم إلى ناحية التلاوة وضبط مخارج الحروف واتقان الغن والمدود، وما إلى ذلك مما يتصل بلفظ القرآن والحفاظ على تواتره كما جاء اداء واحكاماً ـ نقصد احكام التلاوة ـ لكنهم بالنسبة إلى تعاملهم مع كتابهم صنعوا شيئا لم تعرفه القرون الاولى التي تعاملت مع القرآن تعاملا راقيا فما نفعله مع القرآن اليوم ينقصه الكثير والكثير، خاصة في واقعنا الذي نحياه، فالواحد منا يقرأ الآيات والسور، وينتهي من الخاتمة تلو الخاتمة، دون أن تجد أثرا لهذه القراءة في أفعاله وسلوكه، بل إنك إن سألته عما استوقفه من آيات لم تجد منه جوابا وهو لا يعلم انه بذلك هجر القرآن فالامام ابن تيمية يقول: من لم يقرأ القرآن فقد هجره، ومن قرأ القرآن ولم يتدبره فقد هجره، ومن قرأ القرآن وتدبره ولم يعمل به فقد هجره، فالهم اصبح منصرفا لتحصيل أكبر قدر من القراءة، طمعا في الأجر والثواب ومنصرف الى الحفظ دون النظر في المعنى وهذا لم يكن ابدا مقصود القرآن.

المعنى هو المقصود

يقول د. مجدي الهلالي لو كان امر القرآن يتعلق بالثواب المترتب على قراءة القرآن فحسب لكان من الأولى ان نتجه إلى اعمال أخرى تعود علينا بثواب أكبر، مثل ما أخبرنا به صلى الله عليه وسلم: (من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب له الف الف حسنة، ومحي عنه الف الف سيئة، ورفع له الف الف درجة، وبني له بيت في الجنة) ولسنا نعني بذلك التقليل من شان الثواب المترتب على قراءة القرآن، بل نعني إعادة النظر في طريقة تعاملنا معه، فقيمة القرآن وبركته الحقيقية تكمن في معانيه، ولأن اللفظ وسيلة لإدراك المعنى كان التوجيه النبوي بالإكثار من تلاوته، وتحفيز الناس على ذلك من خلال الثواب الكبير للقراءة، فالاب حينما يأمر ابنه بالمذاكرة عدة ساعات واعدا له بجائزة كبيرة، هو بالتأكيد لا يقصد من وراء ذلك مجرد جلوسه على المكتب والنظر في الكتب دون فهم ما تحتويه، بل هدفه تشجيع ابنه على المذاكرة بذهن حاضر ليتحقق له النجاح.

فإذا نظرنا إلى الهدف الأسمى من نزول القرآن، وربطنا بينه وبين ما رتب الشارع الحكيم على قراءته من ثواب عظيم، وجدنا أن من أهداف هذا الثواب تشجيع المسلمين على دوام قراءته حتى يهتدوا بهداه، ويستشفوا بشفائه.. أما أن نقرأه وليس لنا هدف إلا ثواب القراءة فقط، دون الالتفات إلى المعنى المقصود من الخطاب فإننا لاشك سنخسر كثيراً بالاقتصار على ذلك التعامل الشكلي، ولن يحقق فينا القرآن حينئذ مقصوده.

ولا ادل على ذلك من فعل الصحابة بالقرآن فهم لم يهتموا بقراءته بل كان همهم معناه وتدبره والعمل به فهذا عمر بن الخطاب يقول: (كنا نحفظ العشر آيات فلا ننتقل إلى ما بعدها حتى نعمل بهن) وروي عنه انه حفظ سورة البقرة في تسع سنين وذلك ليس للانشغال عن الحفظ أو رداءة الفهم ولكن بسبب التدقيق والتطبيق.

لذا يقول ابن عمر رضي الله عنهما: (لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين الفاتحة إلى خاتمته لا يدري ما آمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده ينثره نثر الدقل!).

لا بديل عن التدبر

إن نصوص القرآن واضحة في أهمية تدبره عند قراءته أو الاستماع إليه ليكون التدبر وسيلة للفهم والتأثر ثم العمل.

يقول تعالى: ﴿كتاب انزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾

ويقول: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾

ولأن فهم مقصود الخطاب لابد أن يلازم المترتب على قراءته، كان توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمرو بن العاص بالا يختم القرآن في أقل من ثلاث معللا ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم: (لا يفقهه من يقرؤه في اقل من ثلاث).

إننا نعمل جاهدين على فهم المقصود من أي كلام نقرؤه أو نسمعه.. فلماذا لا نطبق هذه القاعدة على القرآن؟

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (لا تهذوا القرآن هذ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل – أي التمر الرديء وفي رواية الرمل – قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم احدكم آخر السورة) ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن المعلوم أن كل كلام، فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد الفاظه، فالقرآن أولى بذلك».ويقول القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ ودلت هذه الآية على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه».

فتدبر القرآن، وإن كان واجباً على قارئه أو مستمعه إلا أنه ليس غاية في حد ذاته، بل هو وسيلة لتفعيل معجزته الكبرى وتحقيقها في نفس متلقيه.

المعجزة الكبرى

نعلم جميعاً أن القرآن هو أكبر وأعظم معجزة جاءت من عند الله عز وجل للبشر.

فما سر هذه المعجزة الذي جعلها تتفوق على كل ما سبقها من معجزات؟

قد يجيب البعض بأن معجزة القرآن تكمن في أسلوبه.. وبلاغته.. وتحدي البشر به، وأنه صالح لكل زمان ومكان.. إلخ.

نعم.. هذا كله من أوجه إعجاز القرآن، ولكن يبقى سر إعجازه الأعظم في قدرته على التغيير..

تغيير أي إنسان، ليتحول إلى إنسان آخر عالم بالله عابد له في كل أموره وأحواله، حتى يتمثل فيه قوله تعالى: ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ [الأنعام: 162].

كيفية التغيير

والتغيير الذي يحدثه القرآن يبدأ بدخول نوره إلى القلب، فكلما دخل النور إلى جزء من أجزائه بدد ما يقابله من ظلمة أحدثتها المعاصي والغفلات واتباع الهوى.

وشيئا فشيئا يزداد النور في القلب، وتدب الحياة في جنباته، ليبدأ صاحبه حياة جديدة لم يعهدها من قبل.

قال تعالى: ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ [الأنعام:122].

فالقرآن إذن هو الروح التي تبث في القلب فتحييه.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله «موقف المسلمين من القرآن الذي شرفوا به يثير الدهشة، ومن عدة قرون ودعوة القرآن مجمدة، ورسالة الإسلام كنهر جف مجراه أو بريق خمد سناه».

ويرى الشيخ الغزالي ان الثقافة الإسلامية ابتعدت عن الينابيع الاصيلة من الكتاب والسنة، منتقدا مدارس التفسير القائمة حاليا، حيث يقول:

«يمكن حصر الثقافة الإسلامية في عدد من المدارس: فهناك مدرسة الاثريين أو اصحاب التفسير بالمأثور، وهي مدرسة يمثلها الآن «ابن كثير» وتفسيره الشائع وان كان ابن جرير الطبري ارقى منه وتفسيره ادق، والذي يعيب هذه المدرسة انها ربطت تفسير الآيات بأحاديث اغلبها ضعيف، فكانت مصيدة حالت دون انطلاق الفكر القرآني إلى اهدافه الشاملة في التفسير، ووسيلة إلى شيوع الاحاديث الضعيفة التي بنى عليها المحدثون فكرهم القرآني.

هناك التفسير الفقهي للقرآن، وهو تفسير طوع الآيات لأحكام الفقهاء.. واقتصر في ذلك على الحكم الشرعي دون المقاصد الاخرى وهناك التفسير الكلامي، ونموذجه «الرازي» مثلاً في «التفسير الكبير»، وهو تفسير ينبغي ان يأخذ منه بطرف وندع اطرافا اخرى لأنها خرجت بالتفسير عن مجاله.

وهناك التفسير البياني وهو مثل تفسير «الزمخشري» وأبو السعود والبيضاوي وقد رأيت عددا من المفسرين إلى جانب مفسرين آخرين من مدارس اخرى كانوا بلاء على الامة الإسلامية على الرغم من انهم خدموا البلاغة العربية وخدموا التفسير البياني للقرآن أجل خدمة.

ودعا الشيخ الغزالي إلى رؤية قرانية شاملة، مؤكدا على ضرورة النظر في الآيات القرآنية من خلال تلك النظرة، لأن القرآن، كما يقول الشيخ: «ليس كتابا مقسما على قضايا معينة، ثم تنقطع فيه الرؤى الشاملة، بل هو يعرض الكون وهو يبني العقيدة وهو يربي الخلق ويمزج بين الجميع بطريقة مدهشة، مطالبا بضرورة الاهتمام بالمسلمين اصحاب الفكر لانهم في كثير من دول الاسلام « لا يعاملون إلا معاملة قطاع الطرق» ولا يبرىء الشيخ الغزالي الامة من الذنب والتقصير في وصول الامور إلى هذه الحال، حيث يقول:

«والامة مسؤولة عن هذا.. وما قيمة ان يقال ان الناس قلوبهم مع الحسين وسيوفهم مع يزيد، ما يعني ان الشعب يحيني إذا كان سيتركني اقتل؟!».

ووجه الغزالي دعوة ملحة للمسلمين جميعا لأن يعودوا إلى القرآن الكريم ليكون محور حياتهم، ويجب أن ينظروا إليه كلا وجزءا على انه دعامة امة.. هو عقلها المفكر.. هو ضميرها الصاحي.. هو علمها المرفوع.

ويذكر الامام عبدالعزيز ابن باز انه لا بد للانسان من مدارسة القرآن لفظا ومعنى وهذا ما كان يفعله النبي مع جبريل وانه يستحب للمؤمن أن يدارس القرآن من يفيده وينفعه، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام دارس جبرائيل للاستفادة، لأن جبرائيل هو الذي يأتي من عند الله جل وعلا، وهو السفير بين الله والرسل.فجبرائيل لا بد أن يفيد النبي صلى الله عليه وسلم أشياء من جهة الله عز وجل، من جهة إقامة حروف القرآن، ومن جهة معانيه التي أرادها الله، فإذا دارس الإنسان من يعينه على فهم القرآن، ومن يعينه على إقامة الفاظه فهذا مطلوب، كما دارس النبي صلى الله عليه وسلم جبرائيل.

أرجى آية في القرآن

قال الإمام القرطبي في تفسيره: حُكي أن الصحابة تذاكروا القرآن فقال ابو بكر الصديق -رضي الله عنه-: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ [الإسراء:84] فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان، ولا يشاكل بالرب إلا الغفران.

وقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى: ﴿حم × تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم × غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾ غافر: 1: 3 حيث قدم غفران الذنوب على قبول التوبة، وفي هذا بشارة للمؤمنين.

وقال عثمان بن عفان -رضي الله عنه-: قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ (الحجر: 49).

وقال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾ (الزمر:53).

كيف نربي أبناءنا على اختيار الصحبة الصالحة؟

من حق الابن على والده ان يعينه على اختيار صحبة صالحة لأنه كما يقال «الصاحب ساحب والقرين بالمقارن يقتدي». وقد حث الاسلام على صحبة الصالحين والأخيار وحذر من صحبة الأشرار وفي الحديث الصحيح: «لا تصاحب الا مؤمنا ولا يأكل طعامك الا تقي».

وفي تخير الأصحاب الصالحين للأبناء حماية لهم من الوقوع في الانحراف والبعد بهم عن مزالق السوء ومهاوي الردى، ولقد أحسن من قال:

واختر من الأصحاب كل مرشد
ان القرين بالقرين يقتدي

فصحبة الأخيار للقلب دواء تزيد للقلب نشاطا وقوى
وصحبة الأشرار داء وعمى تزيد للقلب السقيم سقما

فلا شك أن الصحبة الصالحة تنتج انسانا صالحا في دينه وخلقه، كذلك هي الصحبة السيئة تنتج انسانا عاريا من الخلق والدين غير صالح لهذا المجتمع بل هو بمثابة الفيروس الذي يقضي على الأسرة وبالتالي على المجتمع.

والصاحب السيئ يردي صاحبه وهو علامة سيئة في جبين من يمشي معه وقد ورد في الأثر «اياك وقرين السوء فانك به تعرف».

ومصاحبة أهل الباطل والمعاصي تهون المعصية يقول الامام الغزالي: «أما الفاسق المصر على فسقه فلا فائدة في صحبته بل مشاهدته تهون أمر المعصية على النفس، وتبطل نقرة القلب عنها، ولأن من لا يخاف الله لا تؤمن غوائله ولا يوثق بصداقته بل يتغير بتغير الأغراض» فالصاحب العاصي منقلب حسب المصلحة ومن هنا خلقه، أهلك نفسه وأهلك صاحبه بل انه غير مؤتمن على هذه الصحبة، لأن الصحبة امانة كما في الحديث «انما يتجالس المتجالسان بالأمانة ولا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره».

ومن أشد ما يتأثر به الانسان الصحبة في سن مبكرة وخاصة في سن المراهقة ففي سن المراهقة تتكون شخصية الانسان، وفي هذه السن يبدأ الانسان في البحث عن هويته الشخصية وهي نقلة نفسية عند الشاب تتجدد فيها الصراعات التي عاشها وهو صغير الى الشعور بالهوية أو عدم تعيين الهوية حيث الشعور بالاغتراب وذوبان المراهق في الآخرين، وعدم قدرته على اكتشاف قدراته الا بمساعدة الآخرين، ففي هذه المرحلة يكون عند المرهق الاستعداد للصداقة ويبدأ البحث عن صديق ورفيق يكتسب منه تجارب الحياة فاذا كان هذا الصديق سيئ الخلق والسلوك اكتسب فيه السلوك السيئ كالانحرافات الجنسية والعدوانية والتأخر الدراسي والسرقة والكذب والفساد ويظل هذا السلوك ينمو معه كلما كبر ويكبر معه السلوك السيئ وينطور هذا السلوك حتى يكون الانسان وبالا على نفسه وأهله ومجتمعه بل وعلى المجتمع الانساني.

أثر الصحبة الصالحة

هناك حاجات نفسية واجتماعية وثقافية، لا يجدها الانسان الا في ظل الصحبة الصالحة والمناخ الصالح والصحبة لها ثمار حسنة ان كانت صالحة وما مثل صاحب الدين والعقل الرزين فاما صاحب الدين، فانه يؤثر في صاحبه وفي سلوكياته وفي توجهاته وفي أخلاقه يقول صلى الله عليه وسلم «بعثت لأتمم محاسن الأخلاق» رواه أحمد، ولا يخفى أن ثمرة الصحبة الصالحة حسن الخلق وثمرة حسن الخلق الألفة وانقطاع الوحشة وفي الحديث «المؤمن الف مالوف، ولا خير فيمن لا يالف ولا يؤلف» رواه أحمد.

ويقول التابعي الجليل علقمة بن قيس رحمه الله يوصي ابنه «يا بني اذا عرضت لك الى صحبة الرجال حاجة فاصحب من اذا خدمته صانك وان صحبته زانك وان قعدت بك مؤنة مانك – أي كفاك – واصحب من اذا مددت يدك بخير مدها وان رأى منك حسنة عدها، ولان رأى سيئة سدها، اصحب من اذا سألته أعطاك وان سكت ابتدأك وان نزلت بك نازلة واساك اصحب من اذا قلت صدق قولك وان حاولت امرا أمرك – أي أعانك – وان تنازعتما آثرك».

وهذه الوصية جماع الوصايا في الصحبة وثمارها معقودة بها، ولمن عمل بها.